المفارقة اللفظية في شعر طرفة بن العبد

قراءة في ضوء الأساليب النحوية

إعداد

أ.م.د. بتول عباس نسيم

كلية الآداب / جامعة بغداد

المفارقة اللفظية في شعر طرفة بن العبد

قراءة في ضوء الأساليب النحوية

أ.م.د. بتول عباس نسيم

ملخص البحث:

استعمل طرفة أساليب نحوية وبلاغية متنوعة في إحداث مفارقاته الكثيرة ، ومثبتا أن تلك الأساليب هي الأقدر على إظهارها و إيصالها إلى المتلقي .

وقد جاء البحث بحسب ما وجدناه في شعر طرفة من مفارقات أحدثتها الأساليب النحوية على مقدمة وتمهيد يبين معنى المفارقة بشكل موجز وبعضا من تقسيماتها و أنواعها ، ومعنى الأساليب النحوية وماهيتها ، ثم عرض لتلك المفارقات بحسب كل أسلوب ، وتحليلها تحليلا فنيا يظهر ما خفي منها ، ويجلو ما غمض فيها ، ثم عضدنا البحث بخاتمة ، بيّنا فيها أهم النتائج ، وقائمة بالمصادر والمراجع .

الكلمات المفتاحية:

المفارقة اللفظية ، طرفة ، الأساليب النحوية

Abstract

Tarfa used various grammatical and rhetorical methods in bringing about his many paradoxes, proving that those methods are the most capable of showing them and conveying them to the recipient..

The research came according to what we found in the poetry of Tarfa from the paradoxes brought about by the grammatical methods on an introduction and an introduction that briefly shows the meaning of the paradox and some of its divisions and types, the meaning of the grammatical methods and what they are, then a presentation of those paradoxes according to each style, and their technical analysis shows what is hidden from them and shows what He closed in on it, and then the research supported us with a conclusion, in which we explained the most important results, and a list of sources and

references.

Key words : irony, blink, grammatical styles

المقدمة :

من يطلع على ديوان طرفة بن العبد ، ويتنقل بين قصائده الجميلة ، ومقاطعه المتميزة يدرك تماما حجم المفارقات لديه ، مفارقات يخلقها الصراع المحتدم بين ما يتفرد به من عقل متقد وروح خلاقة وبين ما تلقاه من و اقع معيشي خافت ، وممارسات مجتمعية بالية ، يرفضها جملة وتفصيلا ، وينتقدها كلما سنحت له الفرصة ، فكان طرفة بحق شاعر المفارقة ، والمعبر عنها بنصوص إبداعية ، تعكس ما تميز به من شاعرية فذة ، وما تمتع به فكر فلسفي عميق ، كما تعكس ما عاشه من مفارقات الدهر معه بمختلف صنوفها ، وبتعدد أشكالها .

لقد أدرك طرفة أن بالمفارقة يستطيع التعبير عما يعتلج في صدره من لوعة ، وعما مني به من أبناء قومه ، جاعلا منها فرشاة يرسم لوحة متكاملة العناصر ، أو كاميرا يصور لنا صورة متناغمة المحتوى ، وربما خلق منها ميزانا ذا كفتين ، يوازن به بين قضايا الوجود المتناقضة ، ويقارن بين ما يلفه من تنافر وأضداد .

والمفارقة لا تختلف عن غيرها من تعبير وبوح لغوي يعبر بها صاحبها عن أفكاره ورؤاه ، فلكل أسلوبه في التعبير ، وطريقته في البوح ، ولكن ما يلفت النظر في المفارقة هو لحظة الانتقال بالتعبير من مجرد كونه تعبيرا ذا دلالات تنتظم عناصره وتتآلف لإبرازها الإبراز الأمثل ، إلى تعبير يوظف أدوات ما أو أساليب معينة ، تشعر المتلقي أنه انتقل إلى حالة أخرى من الفهم ، وتصدمه بتعبير آخر خلق له تلك المفارقة ، وتنبه إلى ما يشير المتكلم من أضداد ، ليلفت المتلقي إلى شاعريته ، وليقنعه أن مفارقاته لا يقدم عليها إلا الشعراء الأفذاذ ، ولا يفر منها إلا العاجز عن تجسيدها في نصه .

من هنا استعمل طرفة أساليب نحوية بلاغية متنوعة في إحداث مفارقاته الكثيرة ولا سيما فيما سمي بعلم المعاني وما أطلق عليه الأساليب النحوية ، ومثبتا أن تلك الأساليب هي الأقدر على إظهارها و إيصالها إلى المتلقي .

وقد جاء البحث بحسب ما وجدناه في شعر طرفة من مفارقات أحدثتها الأساليب النحوية على مقدمة وتمهيد يبين معنى المفارقة بشكل موجز وبعضا من تقسيماتها و أنواعها ، ومعنى الأساليب النحوية وماهيتها ، ثم عرض لتلك المفارقات بحسب كل أسلوب ، وتحليلها تحليلا فنيا يظهر ما خفي منها ، ويجلو ما غمض فيها ، ثم عضدنا البحث بخاتمة ، بيّنا فيها أهم النتائج ، وقائمة بالمصادر والمراجع .

التمهيد :

أولا : تعريف المفارقة اللفظية :

تمثل المفارقة شكلا من أشكال القول ، يظهر فيه معنى سطحيا ما , في حين يقصد منه معنى آخر, مخالفا للمعنى السطحي الظاهر (1) .

والمفارقة مصطلح قائم على فكرة التناقض أو التضاد تجعل المعنيين الظاهر والباطن في مواجهة مباشرة , وهي (سمة أسلوبية أساسها عقد علاقات متضادة .. وتمثل أداة منهجية للكشف عن شعرية النص الأدبي .. وللمفارقة شكلان رئيسان هما : المفارقة اللفظية ومفارقة الموقف .. أما أنواعها وتشكلاتها الأخرى فتنطوي نحو هذين الشكلين) (2) .

ومن يتابع المفارقة في كتب الأقدمين يجد مسميات تقترب في مفهومها من المفارقة ، نحو : التعريض والمديح بما يشبه الذم , والتورية , والأضداد , والمطابقة , يستخدمها المبدع (لإبراز التناقض بين طرفين متقابلين بينهما نوع من التناقض) (3).

والبحث في المفارقة وتقسيماتها بحث واسع ومتشعب في كل حيثياتها ، في تعريفها وفي تقسيمها ، ولا سيما أن مفهومها في حالة تطور مستمر ، لا يثبت على حالة واحدة ، متجاوزا كونه مجرد صيغة بلاغية (4) فهناك (مفارقات متعددة ذات مفاهيم متعددة تلتقي فيما بينها داخل إطار عام ينتظمها من حيث اجتماع التناقضات) [5] ، يصعب معها حصر كل الأنواع أو الأنماط [6] ، حتى رأى ميوك نفسه – وهو من أهم دارسي المفارقة أن الكتابة فيها أقرب ما تكون إلى المخاطرة ، وهى عنده أشبه بمحاولة(لملمة الضباب) [7] ، وحتى أقر بصعوبة إيجاد تعريف مانع جامع لكل أنواعها وتقسيماتها ، (وأن التمييز بينها من زاوية معينة قد لا يكون كذلك من زاوية أخرى ، كما أن أنواعها التي يمكن تمييزها وتحديدها – بشكل نظري – سوف نجدها عند الممارسة العملية متداخلة الواحدة في الأخرى) [8] .

ولكن ما يعنينا من تقسيمات هو ما تندرج تحته من أساليب نحوية بلاغية ، وهو المفارقة اللفظية القائمة على التوقع والانتظار، فهما جوهرها وعمادها ، إذ كلما زاد الفرق بين ما يتوقع حدوثه وبين ما يحدث فعلاً تظهر المفارقة بشكل أوضح وبأثر أعمق ، حتى أن شدة التضاد ، تجعل المفارقة في قمة الفنية وفي ذروة الإبداع ، قال ميويك : (إنَّ المفارقة تقدم بلا تحيز وجهتي نظر متعادلتين متعارضتين .. وإن التفريق هو أبرز ما يتخذ صفة المفارقة) [9].

إن تحديد المفارقة اللفظية يتعلق بكون المعنى الظاهري واضحاً فيها وذا قوة دلالية مؤثرة ، حتى ليبدو المعنى فيها هجومياً ، ولا سيما في شعر الهجاء ، وحتى ليدرك المتلقي أن الشاعر حينما صاغ مفارقه ، فإنه صاغها بسابق تخطيط ، وبنوع من القصدية ، حتى ليسهل على المتلقي وضع يده عليها ، وحتى ليدرك من أول وهلة مغزاها ومبتغاها ، خلافا لمفارقة الموقف أو

الحدث ، التي يحتاج المتلقي إلى مراقبتها تحليلها واستنباط ما تضمره من أبعاد فلسفية ووجدانية ، والبحث عن خيوط توصله إلى المعنى الخفي المقصود [10].

والمفارقة اللفظية من أبرز أشكال المفارقة من حيث انشار توظيفها في الشعر المعاصر وهذا ما جعل النقاد يركزون عليها في تعريفاتهم النظرية وفي دراساتهم التطبيقية ، وهو كما يقول ميويك (انقلاب في الدلالة) [11] ، وهو ما انطلقنا منه في بحثنا هذا كون لحظة انقلاب الدلالة إلى مفارقة تكون باستعمال الأساليب النحوية البلاغية

ثانيا : التعريف بالأساليب النحوية :

وارتضينا أن نسميها النحوية في بحثنا هذا ، مع تعلقها بعلم المعاني المعني بالأبواب النحوية ، فالأساليب في البلاغة العربية تختلف باختلاف العلم البلاغي ، إذ أن لعلم المعاني أساليب تتعلق بطريقة النظم وما يندرج تحته من معان ، وهو ما نتحدث عنه في بحثنا هذا ، ولعلم البيان أساليب أخرى تتعلم بمعنى المعنى ، كالكناية والتورية والاستعارة مما ليس هذا محله .

والاسلوب في الاصطلاح هو : (الطريقة الخاصة في ترتيب المعاني ، وما تحويه هذه الطريقة من إمكانات نحوية تميز ضربا عن ضرب وأسلوبا عن أسلوب) [12].

يستخدم العرب في كلامهم أسلوبين أساسيين من الأساليب ، لإيصال أفكارهم والتعبير عن ذواتهم ، وهذان الأسلوبان هما الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي ، ولكل منهما تعريفه الخاص ، واستخداماته ، وأغراضه التي تستخدم في مواضع معينة .

والأسلوب الخبري وهو الأسلوب الذي يحتمل الصدق أو الكذب لذاته [13] . وأغراضه كثيرة، بحسب المعنى المراد ممّا يقال نحو: الاسترحام ، مثل: إلهي أنت أدرى بما فيّ ، المدح : مثل : فإنك القمر والباقي نجوم ، والفخر ، مثل : أنا ابن جلا ، و التوبيخ ، مثل : أنا أعلم ما سيحلّ بك ، و إظهار الضعف والخشوع ، مثل قوله تعالى : (قال ربّي إني وهنَ العظمُ مني) [14] ، و التحسر ، نحو قوله تعالى : (فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ) [15] ، والتحذير ، نحو قولنا : أبغض الحلال الطلاق ، وغيرها أكثر من أن يحصى في هذا المقام .

وليس الغرض من البحث في الأسلوب الخبري بيان المعاني المذكورة في علم المعاني ، بل الغرض هو بيان إحداث المفارقة في لحظة استعمال أدوات لفظية كثيرة تأت في سياق الخبر ، فالأسلوب كما هو معروف هو نتاج استعمال المتكلم للأداة ، لمعنى غير ما وضعت له في أصل اللغة ، وما ينتج عن هذا الاستعمال من دلالة أو معنى مقصود ومن مفارقة مطلوبة

والأسلوب الإنشائي هو ما لا يمكن أن يحكم عليه بالصدق أو الكذب ، وذلك لعدم احتوائه على خبر معين ، وينقسم الأسلوب الإنشائي على قسمين، وهما؛ الأسلوب الإنشائي

الطلبي والأسلوب الإنشائي غير الطلبي، أما بالنسبة لأغراض كل منهما فهي كثيرة ومتعددة، منها: الأمر، نحو قول المعلم لتلميذه : اقرأ الدرس ، والنهي: نحو قولنا : لا ترم الكرة في الملعب ، والاستفهام، نحو: "متى تحضر المائدة؟" ، و النداء، كقولنا : يا هذا ، والتمني نحو قولنا : ليتني أحلق عاليا .

ولم نلحظ في ديوان طرفة بن العبد مفارقة بنيت على الأساليب الإنشائية غير أسلوب التمني في مفارقة واحدة أبدعها بأداته الرئيسة (ليت) فهي أم الباب [16] ، وأي أداة أخرى تستعمل للتمني هي محمولة عليها ، وهي (حرف تمن يتعلق بالمستحيل غالبا ، وبالممكن قليلا) [17] ، والتمني كما عرفه سعد الدين التفتازاني : هو (طلب حصول شيء على سبيل المحبة) [18] ، أو هو: (تشهّي حصول الأمر المرغوب فيه ، وحديث النفس بما يكون ولا يكون) [19]

وبالنظر إلى التعريفات السابقة للتمني يجد الطلب المتعلق به طلب على سبيل الحقيقة ، إلا أن طرفة أخرج التمني من سياقه الحقيقي إلى السياق المجازي فجاء عنده على سبيل التهكم والاستهزاء ، فهو لم يستعمله تشهيا لحصول الأمر المرغوب فيه ، بقدر ما جعله أداة جارحة يضرب بها من أراد هجاءه ، وليخلق مفارقة لغوية مضحكة تستهين بالمهجو وتقلل من شأنه ، فتمنى الشاعر ما لا يتوقعه المتلقي منه ، كما في قوله في هجاء الملك عمرو بن هند [20]:

فليتَ لنا، مَكانَ المَلْكِ عَمْرٍو رَغُوثاً حَولَ قُبّتِنَا تَخورُ.
مِنَ الزَّمِرَاتِ، أسْبَلَ قادِماها وضَرّتُها مُرَكَّنَةٌ دَرُورُ.
يُشارِكُنا لنا رَخِلانِ فيها وتعلوها الكباشُ، فما تَنُورُ.

ولم تكن أمنيته مجرد حديث النفس بما لا يكون ، بل صرح بهذا الحديث على الملأ ، وساق أمنيته شعرا تتناقله الألسن ، ومفارقة تلوكها الأفواه ، جاعلا الملك في مخيلته (رغوثا) أو سخلة مدرارة ، تعريضا بالملك وببخله الظاهر، كما أمعن في مفارقته ، واستعار لتلك الرغوث صوت البقرة ، وهو الخوار، ليجعل من المهجو أضحوكة ، ومن الملك مادة للسخرية .

وقد رسم لتلك السخلة صورة حية وقد امتلأت ضرتها باللبن الذي يدر عليهم الخير الوفير، وتكون مطيعة لا تثور لدفع من ينزو عليها من الكباش ، وهي صورة مخالفة تماما لما عليه الملك عمرو بن هند من اعتداد بالنفس ، ومن إباء وشمم ، لكن شاعرنا ركز على تلك السخلة المتمناة التي يراها أكثر نفعا من الملك في عطاياها ، وفي وداعتها ، مفارقة صاغها الشاعر بما تحمل من ضدية وتناقض لا تصلح في أرض الواقع ، بل بالأمنيات والخيالات ، فبعد عبارة : ليت لنا : كل المفارقات صالحة ، وكل التناقضات واقعة ، كما أن المفارقة وحدها قادرة على إقامة

عالم جديد مُتخيل على أنقاض عالم الواقع المعيش ، وهذا الانهدام لعالم الواقع والبناء في عالم الخيال هو خطوة ضرورية ودقيقة في طُرق التغيير [21] .

ولا يمكننا بأي حال عد التهكم مقابلا ومرادفا للمفارقة عموما ، ولكن يمكننا عده شكلا من أشكالها ، ويبين ناصر شبانة ذلك قائلا : (يمكن عد التهكم من أبرز الأنواع البلاغية العربية ، التي تقترب إلى حد كبير من المفارقة) [22] ، والمفارقة اللفظية عموما تنقل الألفاظ من سياقها إلى سياق مناقض لها ، عندما يتخذ الشاعر التهكم أسلوبا له ، فالتهكم (عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار، والوعد مكان الوعيد ، والمدح في معرض الاستهزاء) [23].

ويمكن تسمية مفارقة طرفة هذه بخداع الأداء الذي يقدم شخصا لشخص آخر بشكل ساخر، فيبرز في مفارقته النكتة والملحة والسخرية والضحك ، فالسخرية (تعد هجوما سافرا على الشخص الثاني ، ولهذا فإن راوي النكتة الذي يعد الشخص الأول يكون في حاجة إلى الشخص الثالث ، وهو المستمع الذي يعلن عن إعجابه بصنعة الهجوم المفاجئة له عندما ينفجر في الضحك ، وضحك المفارقة ضحك متولد من خلال بنية التضاد ، أو من خلال عدم الانسجام بين العلة والنتيجة في الشيء المضحك) [24] .

أما مفارقاته اللفظية ، الأخرى فكلها جاءت بطريقة الخبر الذي يحتمل الصدق ، فتكون مفارقه دائمة أبد الدهر تنسجم مع عناصر الوجود ، أو الكذب فيكون من مبالغاته التي رسم فيها المفارقة ، و إيصاله بأسلوب مغاير عن تعبيرات اللغة الاعتيادية ، ونلمس من أساليبه النحوية ما كان مألوفا في الدرس النحوي البلاغي كأسلوب الشرط والاستثناء والنفي ، ومنها ما لم يقر أسلوبا فيه ، كأسلوب التقليل وبيان الحال وغير ذلك ، ومن مفارقاته اللفظية بسب تلك الأساليب ما يأتي :

أولا : أسلوب الشرط :

قدمنا أسلوب الشرط على غيره من الأساليب لأن أغلب مفارقات الشاعر طرفة اللفظية التي لم تكن باللفظ وضده صاغها بأسلوب الشرط ، مما يدل على أن أسلوب الشرط يحمل حمولة دلالية كبيرة تعبر عن تناقضات حياتية كثيرة ، فضلا عما يحمله من حمولة انفعالية عالية ، و أنه أصلح من غيره من الأساليب في خلق مفارقات لفظية ، تنسجم واحتمالية الشرط ، التي تستقر في ذهن المتلقي ، فمع كون وجود الشرط علامة لوجود جوابه [25] ، تبقى مسألة الشرط مسألة افتراضية في زمن المتكلم ، حتى وإن تحققت على أرض الواقع ، كقوله صلى الله عليه وآله وسلم لبعض الصحابة وقد طلق زوجته : (إنْ كنتَ طلقتها ثلاثاً فقد حرمت عليك) [26] ، وحتى مع جدلية الزمن الشرطي عند النحويين والبلاغيين .

وسوق المفارقة بأسلوب الشرط الذي يدل على الاحتمال بوقوع الفعل بعيدا عن أسلوب الخبر المباشر يتناسب تماما والأسلوب الفني الذي قصده طرفة ، أسوة بغيره من الأساليب الإنشائية ، من تعجب واستفهام ، أو أمر ونهي ، أو من تمن ودعاء ، وطلب ونداء ، فالأسلوب الإنشائي أقدر على إخراج صاحبه (إلى اللغة الأدبية التي تعبر عن الانفعالات النفسية ، والعواطف الجياشة ، والانطباعات التي قد تكون متضاربة) [27]، فترى الأدب يحمل هذه اللغة التي يكون حضورها أقوى من الخبر المباشر .

وللشرط أدوات كثيرة استعمل طرفة بعضا منها ، نحو: (أن) ، سميت بـ (أُم الباب) و (متى) وكون (لتعميم الأزمنة) [28]، و(لو) وهي : (حرفُ آمتناع لآمتناعٍ ، كأَنَّه آمتنَعَ وجودُ الثاني لعدمِ وجودِ الأَوَّل)[29] ، و (أما) التي بمعنى (مَهْمَا يكُنْ من شيءٍ) [30] ، أو هي مركبة من (إنْ) الشرطية و(ما) [31] .

ولعل أن الشرطية من أكثر الأدوات التي سخرها طرفة في مفارقاته اللفظية ، وربما كثرتها عنده لأنها القياس في هذا الباب وكل الأدوات المستعملة فيه محمولة عليها .

فمن المو اقف التي تظهر فيها مفارقته بوضوح باستعماله (أن) المكررة جمعه بين الجد والهزل في أن واحد والتفاخر بذلك في قوله [32] :

فإن تُبغِني في حُلقةِ القومِ تَلقَني وإنْ تَقتَنِصْني في الحو انيتِ تَصْطَدِ .
متى تأتِني أُصبحكَ كأساً رَوِيّةً وإنْ كنتَ عنها ذا غِنًى فاغنَ وازْدَد .
وإنْ يَلتَقِ الحيُّ الجميعُ تُلاقِني إلى ذِروةِ البَيتِ الرّفيع المُصَمَّدِ .

إنها مفارقات اجتمعت في شخصية طرفة ، فهو الحكيم المتكلم ، تجده في مجالس أصحاب الحل والعقد ، وهو المقاتل الصنديد ، تجده في ساحات الوغى والقتال ، وهو مع هذا العابث اللاهي ، تجده في حو انيت السكر والمجون ، إنها مفارقات يفتخر بها طرفة ويتباهى ، فهو الحاضر وقت الجد ، كما هو الحاضر وقت الهزل ، فالمفارقة حدثت في أشارته إلى حضوره في موقفين متناقضين .

وقد وقع الشاعر في مفارقة أخرى – في البيت نفسه – من حيث يعلم أو لا يعلم باستعماله ألفاظا تدل في لاوعيه على أن السكر أمر لابد من التستر منه , على الرغم من إعلانه ذلك والتبجح به في كل وقت , امتثالا للقيم المجتمعية السائدة ، التي تحتم عليه الامتناع أم التستر , فاستعمل لفظة (تقتنصني) في عجز البيت الدالة على طلب الطريدة , طلبا يتسم بالبحث والاستقصاء , ومن ثم التأني والهدوء لنيل الصائد طريدته , فهي غير متو افرة لكل ناظر , ولا شك في أن الطريدة تتستر من الصائد والاختفاء عنه ، وهذا خلاف لما أراده الشاعر في وعيه

, وأكده بقوله التالي لهذا البيت الذي اعلن فيه بان يعاقر الخمرة في كل وقت وأمام كل ناظر.

وعلى كل حال فمصير طرفة الموت والفناء كمصير غيره ، ولا عبرة بنظره للوم اللائمين ، ما دام الخلود سمة لا يمكن إدراكها :، قال [33] :

ألا أيها اللائمي أحضر الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي .

كلها مفارقات لفظية مشحونة بالانفعال ، ترجمه الأسلوب الشرطي ، ولا سيما مع أداته (إن) ، التي يستمر بوساطتها بإحداث سيل لا ينقطع من تلك المفارقات ، يقول مفتخرا بقومه الذين يلبسون عدوهم الضرب الذي يتطاير شررا ، وإن حاول العدو دفعهم ، مستعملا أداة الشرط إن أيضا [34] :

إنَّا لنَكسوهُمْ، وإنْ كرِهُوا ضرْباً، يَطيرُ، خِلالَهُ، شرَرُهْ

وكذلك قوله في الموت الذي لا يفرق بين غريب وقريب أو بين عزيز وذليل :

أرى الموتَ لا يُرعي على ذي قَرابةٍ وإنْ كان في الدّنْيا عزيزاً بمَقعَد

مستعملا الأداة (إن) لينتقل بها إلى مفارقته المستمدة من واقع الحياة .

وقوله [35] :

خليلي لا والله ما القلب سالم وإن ظهرت مني شمائل صاح

فقلب الشاعر سقيم بحب من يهواها ، غارق في السكر والذهول ، على الرغم مما يظهر عليه من إمارات السلامة أو الصحو من الخمر ، إنها أداة الشرط التي تفعل فعلها في إحداث المفارقة التي يعي الشاعر تأثيرها في الذهن ، ووطأتها في النفوس .

لقد حشد الشاعر في هذا البيت جملة من الأساليب لإبراز المفارقة ، أسلوب النفي والإثبات ، فهو ينفي كون القلب سالما ، مع اثباته ذلك في قوله : وإن ظهرت مني شمائل صاح ، وأسلوب الشرط المتصدر بأداة الشرط إن ، والتقابل الواضح بين ما ظهر منه من شمائل صاح وما بطن من القلب الذي نفى عنه السلامة ، فالشاعر (هو المفرَّق بين شيئين أو أمرين أو موقفين ، متعارضين في المظهر وواقع الحال ، أو السطح والعمق ، أو الغشاوة والصفاء ، وقيل إن المفارقة تكون أشد وقعاً عندما يشتد التضاد أو التنافر أو التناقض ... وذلك بصيغة فنية تستحوذ على انتباهنا على الشكل والمحتوى ، وتثير فينا إحساسا بالمفارقة يستقطب القناعة ، ويحقق التأثير والاستجابة والمتعة ، وهنا يكمن المعنى الأدبي للمفارقة)[36].

ومن أدوات الشرط التي سخرها لإبراز مفارقته (أما) ، التي هجا في سياقها ملك الحيرة عمرو بن هند بقوله بحسب ما نسب إليه [37] :

أما الملوك فانت الأمهم لؤما و أبيضهم سربال طباخ

فذمه في هذا البيت باعتماده كناية لطيفة عن (البخل) وتهكمه وسخريته منه ، بإنه كان أفضل الملوك بنظافة سربال طباخه ، كناية عن بخله .

بل جعل مفارقته مركبة بوصفه جميع الملوك باللوم ، حين قال الأمهم لؤما , فجعل اللؤم صفة ثابته في الملوك , وزاد عمرو بن هند عليهم فيها

والكناية أسلوب بلاغي تفنن الشعراء فيه و أبدعوا ، ومن أوضح معانيها : أنها (لفظ أريد به غير معناه الذي وضع له ، مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من أرادته – نحو : (زيد طويل النجاد) تريد بهذا التركيب أنه شجاع عظيم ، فعدلت عن التصريح بهذه الصفة ، إلى الإشارة بشيء تترتب عليه وتلزمه ، لانه يلزم من طول حمالة الصيف طول صاحبه ، ويلزم من طول الجسم الشجاعة عادة ، فإذا : المراد طول قامته ، وان لم يكن له نجاد ، ومع ذلك يصح أن يراد المعنى الحقيقي)[38] .

إن المفهوم العام للكناية (الإخفاء وعدم التصريح) يتطابق مع مفهوم المفارقة عند دي . سي . ميويك ، القائل : (المفارقة قول شيء دون قوله حقيقة)[39] لذلك تكون المزاوجة بينهما ضرب من النضج الفني ، وبراعة في الصياغة الشعرية .

من كل ما مر نجد أن (أن) الشرطية حاضرة في أغلب مفارقاته التي أحدثها بأسلوب الشرط ، وهي طاغية على بقية الأدوات ، التي قلما نجدها مثل (لو) ، كما في هجائه قوما بخلاء شبههم بالحرمل في مرارته ، فكما أن الإبل والمواشي لا تقوى على أكله ، ولا تتحمل مرارته ، فتبقى جائعة طاوية مصيرها الهلاك ، ترى هؤلاء القوم البخلاء ، لا يرتجى منهم الكرم ، حتى لو أمسى مواليهم بأمس الحاجة إليهم ، يقول طرفة [40] :

هم حرمل أعيا على كل آكل مبير ولو أمسى سوامهم دثرا .

وللأداة (متى) نصيب في تلك المفارقات المؤثرة ، فيعدل عن استعمالها بوصفها أداة للاستفهام ، ليسخرها أداة شرطية تحمل معنى الظرفية ، وليجعلها في سياق استفهامي استنكاري تعجبي لما تحدثه تلك الأداة من مفارقة غريبة ، يقول في سلوك ابن عمه الغريب معه وهجر انه على الرغم من اقتراب الشاعر منه ، ورغبته في التواصل معه [41] :

فَما لي أرَاني و ابنَ عمي مالِكًا مَتى أدْنُ مِنْهُ يَنأَ عني ويَبْعُدِ

وهو يعتمد في مفارقته هذه أيضا على الضدية الحاصلة بينهما التي يدل عليها الفعلان (ادنو , وينأى) مستهجنا اصرار ابناء عمه على النفور منه على الرغم من حبه اياهم ، ولشدة ألمه وإحساسه بمرارة الظلم التي خلفها أبناء عمومته , تراه في هذه المفارقة يعتمد أسلوب التكرار بالترادف اللفظي , ليبين إصرار أبناء عمه على مقاطعته بالناي مرة وبالابتعاد أخرى

مستعملا الفعلين المترادفين : (ينأ ويبعد) .

إنها مفارقة عجيبة بنظر شاعرنا تعكس حقدا من ابن عمه لا مسوغ له ، يستغرب منها بقوله : (مالي أراني ؟) ، ولم يقل : (مالي أراه) ، أو (ماله ؟) ، ليوقع اللوم على نفسه في تصرف لم يقع منه ، بل من ابن عمه ، تلطفا منه ، وجلدا لذاته ، فهو في هذا البيت أشبه بمن يراجع نفسه ، في سبب نفور ابن عمه منه كل هذا النفور، فلعل السبب يكون منه هو لا من ابن عمه ، ولكن لا يجد طرفة تفسيرا لذلك ، وهكذا هي المفارقات ، لأن (ما نُسميه بالمفارقة إنَّما هو تسجيل التناقض بين ظاهرتين لإثارة تعجب القارئ دون تفسير وتعليل)[42] ، كما أن من أجمل المفارقات و أبلغها إنما تكون بـ (إحداث ابلغُ الأثر بأقل الوسائل تبذيراً)[43] ، لتنبه المتلقي ، وتقنعه بما يرد منها ، أو تجلب له المتعة والفائدة في آن واحد [44] .

ولولا في قوله [45] :

ولولا ثلاثٌ هُنّ مِنْ عِيشةِ الفتى وجدِّكَ لم أحْفَلْ متى قامَ عُوَّدي

فطرفة لا يحفل بالموت كما لا يحفل بوقت مجيئه ، ولو كان مجيؤه في الحال ، وكل ما يحفل به هو خصال ثلاث في نظره هن أقصى ما يصبو إليه ، بل لعلها هي حياته بعينها ، وتلك الخصال الثلاث هي : شرب الخمر والمبادرة به قبل ان ينتبه عذاله ولوامه على شربها ، وإغاثته المستغيث وإعانته اللاجئ ، وتقصير الوقت باللهو والاستمتاع مع حبيبته [46] :

فمِنهُنّ سَبْقي العاذِلاتِ بشَرْبَةٍ كُمَيْتٍ متى ما تُعْلَ بالماءِ تُزبِدِ .

وكَرّي، إذا نادى المُضافُ، مُحَنَّباً كسِيدِ الغَضا نَبَّهْتُهُ المُتَوَرِّدِ .

وتقْصيرُ يوم الدَّجن والدَّجنُ مُعجِبٌ بِبَهْكَنَةٍ تحتَ الطِّرَافِ المُعَمَّدِ .

ومن المناسبة في هذا المقام ذكر المعارضة التي أحدثها لهذه الأبيات عز الدين ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة بقوله [47] :

لولا ثلاث لم أخف صرعتي ليست كما قال فتى العبد

أن أنصر التوحيد والعدل في كل مكان باذلاً جهدي

وأن أناجي الله مستمتعاً بخلوةٍ أحلى من الشهد

وأن أتيه الدهر كبراً على كل لئيم أصعر الخد

لذاك لا أهوى فتاةً ولا خمراً ولا ذا ميعة نهد

ويقصد بقوله : (ليست كما قال فتى العبد) طرفة بن العبد ، ومعارضة الشيخ صلاح الدين الصفدي لابن أبي الحديد [48] :

لولا ثلاث هن أقصى المنى لم أهب الموت الذي يردي

تكميل ذاتي بالعلوم التي تنفعني إن صرت في لحدي

والسعي في رد الحقوق التي لصاحبٍ نلت به قصدي
وأن أرى الأعداء في صرعةٍ لقيتها من جمعهم وحدي
فبعدها اليوم الذي حم لي قد استوى في القرب والبعد

ثانيا : أسلوب الاستثناء :

ويمكن القول أن المفارقة نمط من السلوك ، يترجمه الشاعر بالأسلوب الذي يعكس بلاغته ، هذه البلاغة تتخذ أشكالا مختلفة ، تترجمها معاني النحو مرة ، والبيان أخرى والبديع ثالثة ، والاستثناء أسلوب بلاغي وظفه طرفة في شعره لإحداث بعض من مفارقاته فكانت بأداتين من أدوات الاستثناء هما : إلا ، وغير.

والاستثناء في أيسر تعريفاته هو أن يخرج من الكلام ما لا يراد أن يقع في ذهن السامع ، بوساطة أداة الاستثناء ، أو هو : (صرف اللفظ عن عمومه باستخراج المستثنى من أن يتناوله الأول) [49] ، وقد حملت غير على إلا في المعنى لمشابهتها لها في مخالفة ما قبلها لما بعدها في النفي والاثبات ، لأن معنى الجملة المثبتة : مررت بغير زيد ، ما مررت بزيد [50] ، والعكس صحيح ، كما في الجملة المنفية : ما مررت بغير زيد معناها : مررت بزيد ، والمفارقة تكمن في هذ المخالفة ، وقد جاءت مفارقات طرفة في ديوانه بهاتين الأداتين على النحو الآتي :

أ. إلا :

وتعد (إلا) أم الباب ، وما عداها من أدوات الاستثناء محمول عليها ، تشكل مع مكونات الجملة حكما مثبتا أو منفيا ، لا تكون المفارقة جزءا منه في الغالب ، إلا أن توخي الشاعر الخروج عن المألوف بإيصال فكرته الصادمة جعله يسلك مسلكا مغايرا لما عليه الاستثناء ، ليدخل في الحكم ما يتوقع المتلقي أنه يكون خارجا عه ، كما في قوله يهجو بها ابني أمرأة سماها في بيته (لبينى) ولا يعلم هل جاء اسمها على التصغير كما هو في الواقع ، أم صغره إمعانا في الهجاء والتقليل من شأن المهجو [51] :

ابني لبينى لستم بيد إلا يدا ليست لها عضد

فقد نفى الشاعر عنهما صفة القوة التي عبر عنها باليد ، أو نفى عنهما الكرم وكل ما ترمز إليه اليد من معروف ، ليولد لدى المتلقي احتمالية اضراب الشاعر عن هذا الهجاء ، لكن الشاعر يأتي بعدها بما هو أسوء من الهجاء الأول ، ليؤكد وصفه الأول ، بل يزيده أكثر مما يؤكده ويقويه ، فينفى عن المهجو صفة الأصالة في القوة أو الكرم والعطاء ، وربما لأنه نفى عنهم من يشد عضدهم من الأهل والاقارب ، ولا شك في أن ما ولده الشاعر في نفس المتلقي من احتمالية الإضراب عن الهجاء مع ما يعزز هذا الهجاء مفارقة ما بعدها مفارقة .

ب. غير:

ومن البديع إخراج الذم مخرج المدح ، أو العكس إخراج المدح مخرج الذم [52] ، وقد استعمل طرفة لفظة غير لهذا المعنى كما استعملها لبيان مفارقة لمعنى غير المدح والذم .

استعمل طرفة بن العبد لفظة (غير) التي تفيد الاستثناء ، لينقل المتلقي من حالة سماعه للذم الوارد في أول البيت لاحتمالية الاستدراك والعدول عنه في آخر البيت ، لكن طرفة يحدث لدى المتلي صدمة ذهنية ، يكسر فيها هذا الاحتمال ، بأن يكون ما بعد (غير) تماديا في الذم والهجاء لا استثناء منه ، ولينبه إلى مفارقة لفظية مفعمة بالاندهاش ومليئة بالاستغراب ، يقول طرفة في ذم عبد عمرو بن بشر زوج أخته الذي ظلمها فجاءت إلى أخيها تشكوه [53] :

ولا خيرَ فيه غيرَ أنَّ له غنًى وأنَّ له كشْحاً إذا قامَ أهْضَما

فمع أن المهجو من سادت القبيلة ومن أغنيائهم ، لا يرى الشاعر فيه خيرا ، حتى مع غناه ، بل حول الشاعر الغنى في المهجو سبة عليه وشتيمة ، إذ لم يجني المهجو من هذا الغنى غير سوء الطباع ، وسوء العشرة ، ثم وصفه بعد هذه الأداة بكونه يشبه النساء في شكله وفي خصره النحيل الذي يشبه خصور النساء ، ولا شك في أن من أفحش الهجاء عند العرب ، هو أن يوصف الرجل بوصف النساء ، حتى مع ما يوصف به الرجل من حسن الجسم ورشاقة القوام .

ثالثا : أسلوب النفي :

وأسلوب النفي من أوضح الأساليب تعلقا بالمفارقة ، ذلك أن التضاد حاصل فيه كما هو في المفارقة ، فهو عكس الإيجاب ، والكلام يكون منفيا بعد أن كان موجبا ، وقد عبر عنه الزركشي بأنه (شطر الكلام كله ،لأن الكلام إما إثبات أو نفي) [54]

ومن المفارقات الي شكلها طرفة بأسلوب النفي قوله في خيال حبيبته الذي أرقه وسلب نومه على الرغم من أنه مر فيه مرورا سريعا ، ولم يلبث عنده كثيرا ، وتكمن المفارقة في زمن اليقضة التي أوصلت الشاعر حد الأرق في مقابل الزمن الذي استغرقه طيف الحبيب الذي لم يقر أو يستقر ، قال [55] :

أرّق العَينَ خَيَالٌ لمْ يَقِرّ طافَ ، والرَّكْبُ بصَحْراءَ يُسُرْ.

وهي مفارقة منطقية بنظر المتلقي ، وإن لم تكن كذلك لدى شاعرنا ، فهذا هو شأن المحب دائم التفكير بحبيبه ، يتشبث حتى بالطيف الذي يمر مرورا سريعا .

لقد استعمل الشاعر أداة النفي (لم) لينفي بها فعلا مجانسا للفعل الثابت لديه ، وهما (أرّق) ، (ويقر) ، ومعلوم ما للأرق والقرار من طول تلازم ، نفى الشاعر أحدهما و أثبت الآخر.

ومن المفارقة اللفظية أيضا التي جاءت بأسلوب النفي قوله [56] :

وإلا فما بالي ولم أشهد الوغى أبيت كأني مثقل بجراح

فالشاعر يشكو حاله البائس وقواه الخائرة من حدث ألم به ، حال أشبه بمن شهد الحرب وأصيب بإصابات بليغة ، مع العلم أنه لم يشهد تلك الحرب ولم يصب بجراحاتها ، وهي لا شك في أنها مفارقة تتطلب منه التعجب الذي عبر عنه بأسلوب الاستفهام (فما بالي) .

ومن تلك المفارقات قوله في ذم قوم اتصفوا بالبخل على الرغم من كثرة عددهم ومن عظيم ما يملكون لشدة لؤمهم وشرهم :

من الشر والتبريح أولاد معشر كثير ولا يعطون في حادث بكرا .

فاستعمل طرفة عبارة (لا يعطون) في مقابل ما يجب أن يكون منهم من العطاء مع ما يملكون من مال و إبل ..

وقوله في قصر العمر ونقصان أيامه في مقابل الدهر الطويل الذي على طوله هو نافد ناقص [57] :

أرى العَيش كَنزاً ناقِصاً كلَّ ليلةٍ ... وما تَنقُصِ الأيّامُ والدّهرُ يَنفَدِ .

فستعمل طرفة لفظة ناقصا للعيش ، وما تنقص للأيام ، والمفارقة كل المفارقة أن جعل الدهر ينفد كما أن العيش ينفد مع كون الأيام التي لا تنقص هي كينونة الدهر بتعاقبها .

وقوله مخاطبا من يرجو طول العيش والبقاء والخلود ، على الرغم من قصر العيش ونقصانه فيظلم ويجور [58] :

ستُبدي لكَ الأيامُ ما كنتَ جاهِلاً ويأتِيكَ بالأخبارِ مَن لم تُزَوّدِ .

فلا محالة أنه ميت ، كما كان من قبله الأموات ، وسيدرك علم اليقين الخبر من من لم يكلفه بالإتيان بالخبر ، ولم يزوده بالراحلة والزاد من أجل البحث عن الخبر ، كما لم تتفق معه على وقت محدد للإتيان به ، فالموت خبر لا يطلب ، ولا يعلم وقته ، بل هو من يباغت ، ومن يفرض وقت مجيئه [59] :

ويَأتِيكَ بالأخبارِ مَنْ لم تَبِعْ له بَتاتاً، ولم تَضْرِبْ له وقْتَ مَوعدِ

وقوله في الهجاء [60] :

و أنتَ امرُؤٌ منّا، ولَستَ بخَيرِنا ... جَوَاداً على الأقصى, و أنتَ بخيلُ .

وفي صدر البيت ما تبدو المفارقة واضحة تحمل المتلقي في بدايتها على احتمال المدح في قوله : (و انت امرؤ منا) ثم ليحث صدمة له بأسلوب النفي وبأداة النفي (ليس) لتنفي عنه الأفضلية ، بل ليثبت بعدها صفة البخل فيه .

رابعا : أسلوب الاستدراك :

والاستدراك هو : رفع ما يتوهّم ثبوته من كلامٍ سابقٍ. أو إثبات ما يتوهّم نفيه باستعمال أداة الاستدراك لكنّ ، أو ما يقوم مقامها من أدوات الاستثناء ، فلا يبطل الاستدراك حكم ما قبل الأداة ، ولكن يبطل ما بعده ، نحو قولنا : جاء زيدٌ لكنّ أخاه لم يأت، فإثبات المجيء لزيدٍ لم يلغ، بل نفي المجيء عن أخيه .

والأداة لكن هي أم الباب ، فهي موضوعة له ، وما عداها من الأدوات التي تأتي للاستدراك هي محمولة عليها ، ويشترط في استعمال لكنّ وما في معناها للاستدراك: الاختلاف بين ما قبل (لكنّ) وما بعدها بالإيجاب والسّلب لفظاً، نحو ما جاء زيدٌ لكنّ أخاه جاء ، وقد تأتي (لكنَّ) للتوكيد بدل الاستدراك في نحو: لو فزت لحصلت على جائزة، لكنّك لم تفز.

وبلكن برع شاعرنا في خلق مفارقة لفظية ، جميلة في صوغها مؤلمة في تضادها وتنافرها ، كما في قوله [61]:

فلو كان مَولايَ امرءاً هو غيرَهُ لَفَرّجَ كَرْبِي أوْ لأنْظَرَنِي غَدي

ولكِنّ مولايَ امْرُؤٌ هو خانِفِي على الشكرِ والتَّسْآلِ أو أنا مُفتَدِ .

فمع أن طرفة كان ينتظر من ابن عمه تفريجا لكربته ، وإزالة لهمه ، يرى منه العكس تماما ، فهو يضيق عليه الخناق بسلبه أمواله ، وبلومه المتواصل ، مع ما يصدر من الشاعر تجاهه من تواصل في الشكر والسؤال عنه والذب عنه حد الفداء .

لقد اجرى طرفة موازنة بين ما يجب أن يكون عليه ابن العم من النصرة والتواصل وبين ما هو عليه من الخذلان ومن الظلم والجور ، مستعملا أسلوب الشرط الو اقع بلو التي تفيد امتناع لامتناع ، فقد امتنع تفريج الهم و إنظار الشاعر من ابن عمه لامتناع أن يكون غيره في الموالاة وأواصر القرابة ، ويكفي بالبيت الأول أن يكون واضح المعنى ، تام الدلالة على ما أراد الشاعر، لكنه استعمل أداة الاستدراك تأكيدا لتلك المفارقة التي يتعجب لها طرفة ، والتي يقف بإزائها حائرا متأملا .

خامسا : أسلوب التقليل :

والتقليل أسلوب تعبيري تبرز دلالته من استعمال ألفاظ معينة ضمن سياق نصي ما [62] ، وهو ينسجم تماما وبناء المفارقة ، لذلك استغل طرفة أدوات التقليل نحو: رب وقد لبناء مفارقاته اللفظية ، منها في قوله [63]:

قد يبعث الأمر العظيم صغيرُهُ ... حتى تظل له الدماء تصبّبُ

ومع قلة ما يقع من الصغير من عضائم الأمور فإنها مفارقة حاصلة ، لا نعدم لها أمثلة

في الحياة ، والشاعر يشير هنا إلى نفسه فمع صغر سنه ، ونظرة المجتمع له من عدم قدرته على تغيير الأمور تجده قادرا على الإتيان بعظائمها ، وقادر على جلب حقه بحد السيف وبسفك الدماء .

وقد لا يعني بالصغير نفسه فالصغير هو ظلم بني عمومته له ، فمع أنه أمر تافه بالنسبة إليهم لا يشكل لديهم أمرا ذا بال ، قد يجلب عليهم الويلات إذا ما أصروا على ارتكابه ، فكم من نار محرقة أكلت الأخضر واليابس ، كان إذكاؤها بشرر صغير لا يعبأ به .

ومع التفسيرين هذين ، تكمن المفارقة في أن الامور الكبيرة والعظيمة لا تأتي الا من خلال العظماء من الناس أو من عظائم الأشياء ، والمنطق والعقل يسمحان بقبول هذه النظرية وتطبيقها على ارض الو اقع , ولكن عكس ذلك عندما يدفع الشاعر بتخلخل المنطق , وذلك بسبة الامور العظيمة الفعل الى ما يوصف بالصغر , وعدم المساواة مع الفعل , مما يخلق الدهشة والحيرة لدى المتلقي , والمفارقة اللفظية التي استعمل طرفة فيها أسلوب التقليل ، عضدها باستعماله لفظتي (العظيم , وصغيره) , اذ بهما يوصل الشاعر التلقي الى قوة الخفية الكامنة في اعماقه , والتي عندما تظهر ستفاجئ الاخرين حتى افضى البيت الى نتيجة وصفها الشاعر بقوله : (حتى تظل له الدماء تصبب) .

إن طبيعة الأمور تستوجب ألا يخلق الأمر العظيم إلا العظيم ، لكن طرفة يوظف تلك الأمور توظيفا شعريا ، ليعبر عنها بطريقة مختلفة ، فما من أمر عظيم جلل إلا وكانت انطلاقته صغيرة ثم يكبر هذا الصغير حتى يتعاظم ، وفي هذه النقطة بالذات يكون التناقض والتضاد ، بين أشياء الحياة كاشف عن أعمق تجليات الحياة فالاستعارة في عبارة عجز البيت حتى تظل له الدماء تصبب تكشف أن استعارته هي خلق للأفكار لا توضيحات مجردة وهي أيضا جريئة بما يكفي .... فقد نظر طرفة إلى هذين الأمرين المتباعدين في شعره إلى الحقيقة من وجهها مرة من جهة الأمر العظيم المتمثل بالظلم فرآه آخذا وغاشما ومرة من جهة من يتهيأ له من الأمور الصغيرة التي تجبر على أن يتبدل من صفة السلب إلى المسلوب والدورة في الحياة مستمرة متعاظمة ثم مسلوبة في مقابل صغير يتعاظم حتى يكون سالبا

وهكذا تبدو المعاني أو الصور الشعرية عند طرفة ميدانا لاختيار الأشياء ، فما يراه ذا قيمة إيجابية في ذاته لا بد أن يختبره فيدخله في علاقة مع غيره فيتمثله في ظرف غير الظرف الذي كان فيه إيجابيا ، وحينذاك يجد أن تلك القيمة الإيجابية فيه لم تكن إلا شيئا محدودا ، حتى أنها تعد بالمنظور القادم للحركة قيمة سلبية .

ويقول أيضا في السياق نفسه [64] : :

قد يُورِدُ الظُّلْمُ المُبَيَّنُ آجناً مِلْحاً، يُخالَطُ بالذعافِ، ويُقشَبُ

ففي أغلب الأحوال يقع ضرر الظلم على المظلوم ، ويذوق المظلوم ويلات من ظلمه ، إلا أن من مفارقات الحياة أن الظلم لا يقتصر خطره على من وقع عليه الظلم بل قد يعود بضرره على من أوقعه ، وهي مفارقة مع قلة حصولها ، وبعد احتمالها عن ذهن الظالم ، هي مفارقة غير مستحيلة ، يحذر الشاعر من امكانية وقوعها ، ويدعو الظالم إلى الكف عمن ظلمه .

ومن الشواهد على المفارقة اللغوية الحاصلة بـ (رب) قوله [65] :

ولا تحرصن فرب امرئ مضاع على حرصه

فطرفة يحث غيره وينصحه على أن لا يبالغ في حرصه على أمر ما ، فربما لا ينفع المرء حرصه على شيء .

ومع أن الأدوات التي استعملها طرفة (قد ، ورب) اشتهرت دلالاتها عند النحويين بالتقليل ، إلا أنها إلى دلالة توكيد القليل وتحقيقه أقرب (وذلك أن رب في غالب استعمالاتها في النصوص تأتي لتحقيق ما يندر وجوده ، وينعدم وجود مثيل له ، أو ما يخالف العادة والمألوف والمتوقع ، كما تأتي فيما ظاهره التناقض أو عدم التناسب ، أو فيما يستغرب ، وكلها أمور ارتبطت بالقلة والندور ، ومن ثم احتاجت إلى توكيد وتحقيق وجودها أو حدوثها ، على ندرتها وعدم تناسبها ، إذ لا يجني المتكلم ولا السامع فائدة من تقليل ما هو قليل ، والتحقيق لا يكاد يفارق (رب) حتى مع استعمالاتها الأخرى) [66] ، وكذلك (قد) .

كما تأتي رب وقد للتوقع ، لذلك يدخلان على الفعل المضارع الدال على الاستقبال [67] ، ولا شك في أن طرفة أبرز ما توقعه للمتلقي في ما لا يتوقعه ، ومن هنا ولدت المفارقة .

سادسا : بيان الحال :

وإن لم يعد بيان الحال أسلوبا ، فإنه جاء في الجلة الخبرية على كل حال ، وقد عرف الجرجاني الحال بقوله : إنها (نهاية الماضي وبداية المستقبل) [68] ، وهي تطلق لغة على معنيين : الأول : الوقت الذي أنت فيه ، والثاني : ما عليه الأنسان من خيروشر [69] ، والمجاشعي يقول : (إن أصل الحال ما دل على انقلاب الشيء عما كان عليه واشتقاقها من حال الشيء يحول إذا انقلب عما كان عليه ، لهذا قيل للحمأة : حال ، لأنها طين انقلب عما كان عليه) [70] ، وقد يكون الحال سببا لمفارقة يتعجب من صاحبها ، لوجود تنافر بينهما ، أو عدم انسجام ، أو لكونها غير متوقع حدوثها لصاحبها .

وتقع الحال بأنماط مختلفة ، منها المفردة ، ومنها الجملة بنوعيها ، ومن المفارقات اللفظية التي صاغها طرفة في إظهار حكمته استعمال جملة الحال المسبوقة بالواو لبيان حال شيء اتصف بعكس ما تحتمله تلك الحال ، كما في قوله في فتى اتصف بسقوط عقله ، ومع

ذلك تجد بعض الناس يعجبون بشخصه ، وهو عكس ما يتوقع منهم تجاه هذا الفتى ، ومع كون ذلك من مفارقات الناس العجيبة ، تجد ذلك يصدر عنهم كثيرا ، قال طرفة [71] :

وكم من فتى ساقط عقله وقد يعجب الناس من شخصه .

من ذكاء طرفة وإمعانه في بيان تلك المفارقة اللفظية استعماله كم الخبرية التي تفيد التكثير ، وقد الداخلة على الفعل المضارع والتي تفيد التقليل في سياق واحد ، يقول أيضا في السياق الحكمة نفسها [72] :

وآخر تحسبه أنوكا ويأتيك بالأمر من فصه

فمع أن الشخص تظهر عليه علامات الحمق ، ومظاهر الخرق ، ترى حاله عجيبا حينما يأتيك بالأمر الذي يدل على حصافة وقوة عقل ، ولا شك في أن هذه مفارقة حياتية ابرزها طرفة باستعماله الحال الموجبة خلاف ما عليه صاحبها .

لقد قدم لنا الشاعر حكمة بالغة بعدم الاستخفاف بالأشياء والحكم على ظاهرها ، فربما ينطوي هذا الظاهر على باطن حسن يفرض نفسه على الآخرين حتى ليعترفوا له بالفضل والمزية .

ومن المفارقات التي أبرزها الشاعر بذكر الحال التي تكون سببا لتلك المفارقة ، قوله [73] :

فَكيفَ يُرجّي المرءُ دَهراً مُخلَّداً ... وأعمالُهُ عَمّا قَلِيلٍ، تُحاسِبُهْ

فطرفة ينفي الخلود لمن يرومه بطريقة الاستفهام المجازي الذي يخرج لمعنى النفي ، مع كون المرء المتعجب منه في حال يكون معها محاسبا من الله تعالى بما اقترف من أعمال ، معبرا عن زمن الحساب بقوله عما قليل التي تصدق على الحساب قبل الموت أو بعده ، فالمفارقة هنا حاصلة بين الحال وصاحبها ، وكونهما غير منسجمين ، ولا يتوقع فعله مع ما يتصف به من حال ، فخلود المرء محض خيال ، وزيف من المحال ، ولو كان الخلود ممكنا لكان لقمان بن عاد أولى بالخلود [74] :

ألم تَرَ لُقمانَ بنَ عادٍ تَتابَعتْ ... عليه النّسورُ، ثمّ غابتْ كواكبه؟

هذا ما جاد به البحث وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الخاتمة :

بعد كل ما عرضناه من مفارقات أبدعها طرفة بأساليب نحوية وبلاغية متنوعة ، يمكن لنا عرض النتائج على الشكل الآتي :

1. استعمل طرفة بن العبد أساليب نحوية بلاغية متنوعة في إحداث مفارقاته

الكثيرة ولا سيما فيما سمي بعلم المعاني وما أطلق عليه الأساليب النحوية ، ومثبتا أن تلك الأساليب هي الأقدر على إظهارها و إيصالها إلى المتلقي .

2. المفارقة لا تختلف عن غيرها من تعبير وبوح لغوي يعبر بها صاحبها عن أفكاره ورؤاه ، فلكل أسلوبه في التعبير ، وطريقته في البوح ، ولكن ما يلفت النظر في المفارقة هو لحظة الانتقال بالتعبير من مجرد كونه تعبيرا ذا دلالات تنتظم عناصره وتتآلف لإبرازها الإبراز الأمثل ، إلى تعبير يوظف أدوات ما أو أساليب معينة ، تشعر المتلقي أنه انتقل إلى حالة أخرى من الفهم ، وتصدمه بتعبير آخر خلق له تلك المفارقة ، وتنبهه إلى ما يشير المتكلم من أضداد ، ليلفت المتلقي إلى شاعريته ، وليقنعه أن مفارقاته لا يقدم عليها إلا الشعراء الأفذاذ ، ولا يفر منها إلا العاجز عن تجسيدها في نصه .

3. لم نلحظ في ديوان طرفة بن العبد مفارقة بنيت على الأساليب الإنشائية غير أسلوب التمني في مفارقة واحدة أبدعها بأداته الرئيسة (ليت) ، وقد أخرج طرفة التمني من سياقه الحقيقي إلى السياق المجازي فجاء عنده على سبيل التهكم والاستهزاء ، فهو لم يستعمله تشهيا لحصول الأمر المرغوب فيه ، بقدر ما جعله أداة جارحة يضرب بها من أراد هجاءه .

4. أغلب مفارقاته اللفظية جاءت بطريقة الخبر الذي يحتمل الصدق ، فتكون مفارقه دائمة أبد الدهر تنسجم مع عناصر الوجود ، أو الكذب فيكون من مبالغاته التي رسم فيها المفارقة ، و إيصاله بأسلوب مغاير عن تعبيرات اللغة .

5. استعمل طرفة من الأساليب النحوية البلاغية ما ألفها الدرس اللغوي كأسلوب الاستثناء والشرط والنفي ، واستعمل أساليب أخرى لم تدرج ضمن الأساليب المشهورة ، نحو : أسلوب الاستدراك والتقليل وبيان الحال .

6. أغلب مفارقات الشاعر طرفة اللفظية التي لم تكن باللفظ وضده صاغها بأسلوب الشرط ، مما يدل على أن أسلوب الشرط يحمل حمولة دلالية كبيرة تعبر عن تناقضات حياتية كثيرة ، فضلا عما يحمله من حمولة انفعالية عالية ، وأنه أصلح من غيره من الأساليب في خلق مفارقات لفظية ، تنسجم واحتمالية الشرط ، التي تستقر في ذهن المتلقي .

7. (أن) الشرطية حاضرة في أغلب مفارقاته التي أحدثها بأسلوب الشرط ، وهي طاغية على بقية الأدوات ، التي قلما نجدها مثل (لو)

8. بنى طرفة مفارقته الأخرى بأسلوب الاستثناء وبأداتي إلا وغير ولا ، وأدوات

النفي لم وما ولا وليس ، كما استخدم لكن للاستدراك ورب وقد للتقليل ، وقد والواو الحالية لبيان الحال .

الهوامش

الهوامش

(1) ينظر: المفارقة في القص العربي المعاصر: 124 .
(2) المفارقة في الشعر العربي المهجري الشمالي. شعر الرابطة القلمية أنموذجا : 30 .
(3) عن بناء القصيدة العربية الحديثة :137.
(4) ينظر: المفارقة وصفاتها : 21 ، والمفارقة في الشعر العربي الحديث بين سلطة الإبداع ومرجعية التنظير: 4 .
(5) ينظر: المفارقة والأدب دراسات في النظرية والتطبيق: 25 .
(6) المصدر نفسه : 24 .
(7) موسوعة المصطلح النقدي ، المفارقة : 18 .
(8) المصدر نفسه : 43 .
(9) المفارقة وصفاتها : 38 ، 44 .
(10) ينظر: المفارقة القرآنية : 71
(11) المفارقة وصفاتها : 32.
(12) البلاغة والأسلوبية : 26 .
(13) ينظر: الصاحبي في فقه اللغة : 155 ، ومفتاح العلوم : 164
(14) مريم : 4 .
(15) آل عمران : 36 .
(16) ينظر: الأصول في النحو: 2 / 217 ، حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك : 1 / 424 .
(17) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : 375. 376 .
(18) ينظر: المختصر على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني في المعاني والبديع والبيان: 2 / 239 .
(19) لسان العرب : 15 / 294 .
(20) ديوانه : 38.
(21) ينظر: بنية الشعر العربي المعاصر: 29 ، 30 .

(22) المفارقة في الشعر العربي الحديث : 31 .

(23) تحرير التعبير في صناعة الشعر: 568

(24) بناء المفارقة في المسرحية الشعرية : 74 ، والمفارقة اللغوية في معهود الخطاب العربي دراسة في بنية الدلالة : 2 .

(25) ينظر: شرح المفصل : 7/ 41 .

(26) صحيح البخاري : كتاب الطلاق ،باب وبعولتهن أحق بردهنَّ في العدة : 78/7 .

(27) لغة عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز فاعلة أم منفعلة :

(28) توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك : 3 / 1276 .

(29) شرح المفصَّل : 156/8 ، وينظر: في التركيب اللغوي للشعر العراقي المعاص97 .

(30) ينظر: الكتاب : 137/3 .

(31) ينظر: الجنى الداني في حروف المعاني : 482 .

(32) ديوانه : 24.

(33) ديوانه : 25 .

(34) المصدر نفسه : 36 .

(35) المصدر نفسه : 15 .

(36) المفارقة ، موضوعاً شعرياً قبل الإسلام : 2 .

(37) ديوانه : 150 بشرح الأعلم .

(38) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: 346 ، 347 .

(39) المفارقة والأدب دراسات في النظرية والتطبيق: 17 .

(40) ديوانه : 47 .

(41) المصدر نفسه : 26 .

(42) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر: د. عبد العزيز الأهواني : 105 .

(43) المصدر نفسه : 63 .

(44) ينظر: النقد التحليلي : 42 .

(45) ديوانه : 25 .

(46) المصدر نفسه : 25.

(47) فوات الوفيات : 2/ 261 .

(48) المصدر نفسه : 2/ 261 .

(49) شرح المفصل : 2 / 75 ـ 76 .

(50) ينظر: المصدر نفسه : 2 / 83 ..

(51) ديوانه : 33 .

(52) ينظر: حماسة الخالدين ، الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين (ص: 0) .

(53) ديوانه : 70 .

(54) البرهان في علوم القرآن : 2 / 375 ، و موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم : 2 / 1722 .

(55) ديوانه : 39 .

(56) المصدر نفسه : 15 .

(57) المصدر نفسه : 26 .

(58) المصدر نفسه : 29.

(59) المصدر نفسه : 29.

(60) المصدر نفسه : 67 .

(61) المصدر نفسه : 27 .

(62) التقليل والتكثير في العربية دراسة نحوية تطبيقية : 253 .

(63) ديوانه : 12 .

(64) المصدر نفسه : 12 .

(65) المصدر نفسه : 51.

(66) التقليل والتكثير في العربية دراسة نحوية تطبيقية : 253 .

(67) ينظر: المصدر نفسه .

(68) التعريفات : 94 .

(69) ينظر:حاشية الصبان على شرح الأشموني : 2 / 250 ، والحال في النحو العربي وآراء النحاة فيه : 127 .

(70) شرح عيون الإعراب : 153 .

(71) ديوانه : 51.

(72) المصدر نفسه : 51.

(73) المصدر نفسه : 11 .

(74) المصدر نفسه: 11.

المصادر والمراجع :

1. ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر: د. عبد العزيز الأهواني ، وزارة الثقافة والإعلام ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط2 ، 1986 م.
2. الأصول في النحو ، أبو بكر بن السراج ، تح : عبد الحسين الفتلي ، ط3 ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1988 م .
3. البرهان في علوم القرآن ، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت 794 هـ) ، تح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، ط1 ، 1957 م .
4. البلاغة والأسلوبية ، د .محمد عبد المطلب ، مكتبة لبنان ناشرون ، الشركة المصرية العالمية للنشر. لونجمان ، ط1 ، 1994 م .
5. بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ، سعيد شوقي ، 2001 ، ايتراك للنشر والتوزيع ، ط1 ، 1905م.
6. بنية الشعر العربي المعاصر: د. محمد لطفي اليوسفي : دار سراس للنشر: تونس- 1985 م.
7. تحرير التعبير في صناعة الشعر، ابن أبي الإصبع المصري ، تح : حفني محمد شرف ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، 1995 م
8. التعريفات ، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت 816هـ) ، تح : جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت –لبنان ، ط1 ، 1983م

9. التقليل والتكثير في العربية دراسة نحوية تطبيقية ، عزة علي الشدوي الغامدي ، رسالة ماجستير، كلية الآداب ، جامعة الملك سعود ، 1427 هـ .
10. توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك ، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (ت 749هـ) ، شرح وتحقيق : عبد الرحمن علي سليمان ، دار الفكر العربي ، ط1 ، 2008م .
11. الجنى الداني في حروف المعاني ، لجنى الداني في حروف المعاني ، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (ت 749هـ) ، تح : د فخر الدين قباوة والأستاذ محمد نديم فاضل ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، 1992 م
12. جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (ت 1362هـ) ، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي ، المكتبة العصرية، بيروت .
13. حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك ، أبو العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي (ت 1206هـ) ، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان ، ط1 ، 1997م
14. عدد الأجزاء: 3الحال في النحو العربي وآراء النحاة فيه ، م. م. لؤي حاتم عبد الله ، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية ، المجلد 17 ، العدد 1 ، كانون الثاني ، 2010 م.
15. حماسة الخالديين = الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين ، الخالديان أبو بكر محمد بن هاشم الخالدي ، (ت نحو 380هـ) ، و أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدي (ت 371هـ) ، تح : د. محمد علي دقة ، وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية ، 1995م.
16. ديوان طرفة بن العبد ، شرح الأعلم الشنتمري ، وتليه طائفة من الشعر المنسوب إلى طرفة ، تح : درية الخطيب ، ولطفي الصقال ، إدارة الثقافة والفنون ، دولة البحرين ، والمؤسسة العربية ، بيروت لبنان ، ط2 ، 2000م.
17. ديوان طرفة بن العبد ، طَرَفَة بن العَبْد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي أبو عمرو الشاعر الجاهلي (ت 564 م) ، تح : مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، ط3 ، 2002 م .

18. شرح عيون الإعراب ، أبو الحسن علي بن فضال المجاشعي (ت 479 هـ) ، تح : د. حنا جميل حداد ، دائرة اللغة العربية وآدابها ، جامعة اليرموك ، إربد ، 1985 ، مكتبة المنار، الأردن ، الزرقاء .
19. شرح المفصل ، موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش (ت 643 هـ) ، مكتبة المتنبي ، قدم له : الدكتور إميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط1 ، 2001 م .
20. الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت 395هـ) ، محمد علي بيضون ، ط1 ، 1997م .
21. صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه و أيامه ، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي ، تح : محمد زهير بن ناصر الناصر ، دار طوق النجاة ، ط1 ، 1422هـ .
22. عن بناء القصيدة العربية الحديثة ، علي عشري زايد ، مكتبة الآداب – القاهرة ، ط4 ، 2002م.
23. فوات الوفيات ، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (ت 764هـ) ، تح : إحسان عباس ، دار صادر– بيروت .
24. في التركيب اللغوي للشعر العراقي المعاصر دراسة لغوية في شعر السياب ونازك والبياتي ، د. مالك يوسف المطلبي ، دار الرشيد للنشر ، 1981 م.
25. لسان العرب ، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت 711هـ) ، دار صادر– بيروت ، ط3 ، 1414 هـ .
26. لغة عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز فاعلة أم منفعلة :
27. الكتاب ، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (ت 180هـ) ، تح : عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط3، 1988 م .
28. المختصر على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني في المعاني والبديع والبيان ، سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاتي (ت 792 هـ) ، ترتيب وتعليق : عبد المتعال الصعيدي ، قم ، 1916 م.

29. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ابن هشام جمال الدين الأنصاري ، تح : د. مازن المبارك ، ومحمد علي حمد الله ، مطبوعات جامعة حلب ، 1972م .
30. مفتاح العلوم ، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (ت 626هـ) ، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، ط2، 1987 م .
31. المفارقة ، دي. سي . ميويك ، ترجمة الدكتور عبد الواحد لؤلؤة ، موسوعة المصطلح النقدي ، ج 13 ، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، العراق – 1983 م .
32. المفارقة في الشعر العربي الحديث ، ناصر شبانة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002 م.
33. المفارقة في الشعر العربي الحديث بين سلطة الإبداع ومرجعية التنظير، صليحة سبقاق ، مجلة اللغة الوظيفية ، العدد الثامن ، جامعة حسيبة بن بوعلي ، الشلف. الجزائر، 2015م .
34. المفارقة في الشعر العربي المهجري الشمالي. شعر الرابطة القلمية أنموذجا ، كلية التربية للبنات ، جامعة بغداد ، 2001 م .
35. المفارقة في القص العربي المعاصر، سيزا أحمد قاسم ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، مجلة فصول ، مج 2 ، ع 2 ، 1982 م .
36. المفارقة القرآنية ، محمد العبد ، دار الفكر العربي ،القاهرة ، ط1 ، 1994 م .
37. المفارقة اللغوية في معهود الخطاب العربي دراسة في بنية الدلالة ، عاصم شحاتة علي ، مؤسسة بونة للبحوث والدراسات ، مجلة بونة للبحوث والدراسات ، ع 11 / 12 ، الجزائر، 2009 م .
38. المفارقة موضوعا شعريا قبل الإسلام ، الدكتور احمد إسماعيل النعيمي ، مجلة كلية التربية للبنات – جامعة بغداد .
39. المفارقة والأدب دراسات في النظرية والتطبيق، وتأليف الدكتور خالد سليمان ، دار الشروق ، الطبعة الأولى ، عمان – 1999 م .
40. المفارقة وصفاتها ، دي. سي. ميويك ، ترجمة الدكتور عبد الواحد لؤلؤة ، موسوعة المصطلح النقدي ، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد – 1987 م .

41. موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم ، التهانوي ، محمد بن علي ابن القاضي محمد بن حامد بن محمد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (ت بعد 1158 هـ) تح : د. علي دحروج ، مكتبة ناشرون ، بيروت . لبنان ، ط1 ، 1996م .
42. النقد التحليلي ، محمد محمد عناني ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة – د. ت .